

إعداد

أ.د. عبد الرحمن عبد الواحد الشجاع

جامعة صنعاء - كلية الآداب

قسم التاريخ

الحساسية التاريخية

هل من سبيل لعلاجها؟؟

الإنسان حينما يصابه مرض ما يسعى - جاهداً - لإزالة ذلك المرض عنه ، أو التخفيف منه بشق الوسائل .. إما بما كسبه من تجارب خاصة بنفسه ، أو بتجارب من سبقه من الجربين . وإما بأن يهرع إلى طبيب يشكو إليه حاله ويستعطفه ليتدخل في معالجة ما يشكو منه ، .. وإما يلجأ إلى المشعوذين والمشعوذات ويبحث عندهم شفاءً لحالته المرضية .. وهناك من يصاحب هذه الأوضاع بالابتهاال إلى الله بأن يرفع عنه ضرره .

هكذا هي حال الإنسان الذي يصابه أي مرض مهما كان حجمه أو نوعه .. ولكن الذي يثير العجب أن تجد مرضاً يصيب جسداً ما لا يسعى صاحبه إلى البحث عن وسائل للتداوي منه ... وهذا يصدق على جسم الأمة الذي أصابته الأمراض بكل أشكالها وألوانها وما زالت تصيبه ، ومع هذا يتواطء من لديهم العلاج على استفحال المرض .

ومن أنواع المرض تلك (الحساسية التاريخية) التي أراها قاتلة للكتابة التاريخية ومشوهة لها .

لأن (الحساسية) ذلك المرض الذي يُعرّفه الأطباء بأنه : حالة من التغيرات الكيميائية التي تحدث نتيجة تعرض الجسم لمؤثرات خارجية أو داخلية ، وبقدر ما يكون المؤثر قوياً بقدر ما يزداد أثره على الجسم . وبمعنى آخر : الحساسية هي رد فعل شديد لجهاز مناعة جسم الإنسان لمواد طبيعية في البيئة . كما يعرفها البعض : بأنها استقبال الجسم لمواد غير ضارة (مسببات الحساسية) على أنها خطيرة مما يؤدي إلى أثر داخل الجسم وربما آثار خطيرة .. والمسببات هذه تتجاهلها أجسام أخرى ولا تؤثر فيها لأنها ليست متحسسة لها . وتظهر بعد ذلك إما بصورة حساسية حادة ، وإما حساسية مزمنة . وبعضها قد تؤدي بصاحبها إلى الموت .

فهذه الحساسية الجسدية إذا ما تركت استفحلت وفعلت بصاحبها الأفاعيل ..

أما الحساسية النفسية وهي أيضاً مرض يصيب الإنسان فقد تبدأ مأمونة الجانب وتنتهي بالشك والوسواس القاتل للحياة السليمة .

هذا جزء من أضرار بعض أنواع الحساسية المرضية العضوية والنفسية على حد سواء فما بالكم بالحساسية التاريخية ..

إذا أردنا أن نعرف هذا المرض التاريخي فيمكن أن نقول : إن الحساسية التاريخية هي رد فعل شديد لجهاز مناعة عقل وفكر وثقافة الكاتب في التاريخ لأنه تعرض لمؤثرات خارجية أو داخلية هي غير ضارة في طبيعتها لأنها لا تؤثر على آخرين إلا أنه يستقبلها على أنها مؤثرات خطيرة فتؤثر في جهاز مناعته الثقافية والفكرية ومن ثم تفرز أنواعاً من الحساسية التاريخية التي تتفاوت قوة وضعفاً بحسب قوة المؤثر وقد تؤدي إلى تدمير جسم الأمة ممثلاً في تاريخها .

ومن حقنا أن نأخذ هذا التعريف مأخذ الجد ونحاول تطبيقه على تاريخ اليمن - وقد تواتنا الفرصة يوماً ما لإسقاطه على تاريخ الأمة الإسلامية كلها - فجسم تاريخ اليمن أصابه من كتب عنه ببقع حساسة في كل أطواره منذ أن عرف لليمن وجود تاريخي مدون إلى يوم الناس هذا . فغالب من يكتب عن أي طور من تلك الأطوار يكتب من منطلق ذلك المرض (الحساسية) . وليس في وسعنا أن نتبع كل ما يثير تلك الحساسية في جسم التاريخ اليمني كله ، ولكنني سأقتصر على أمثلة لعلها تبين ما أرمي إليه ، لكي أحاول البحث عن وسيلة للعلاج ، أو طرح وصفة علاجية بين يدي المؤرخين لعلهم يناقشونها ، ومن حقهم أن يعدلوا ، أو يضيفوا ، أو يوجدوا وصفة أخرى .

فهذه ظاهرة ينبغي للمؤرخين أن يقفوا عندها طويلاً ، ويسعوا لإدراك حقيقتها ، والبحث عن مخرج منها .

ولكي تتضح الصورة على حقيقتها لابد من استعراض بعض الأمثلة .. ولن أقف طويلاً لتحديد الصورة الصحيحة لكل مثل من الأمثلة ، ولكنني أشير إليها إشارة ، ومن شاء أن يبحث عن الحقيقة فلن يعدم السبيل إلى ذلك .

* * *

يغلب على الكتابات التي تسعى لتمجيد اليمن واليمنيين أن تستدعي الحكايات الأسطورية التي حكيت في أوساط الناس ، ونقلها المدونون للتأريخ بصفتها حكايات للتسلية^(١) فتستدعي

(١) انظر : وهب بن منبه . الأبنواي الصنعاني الذماري (ت ١١٤هـ / ٧٣٢م) . التيجان في ملوك حمير . مركز الدراسات والبحوث اليمني .

هذه الحكايات وتصنع من جديد لتكون حقائق .. فاليمانيون وصلوا إلى أرجاء الأرض وجاسوا خلال الديار الأرضية كلها ، وأقاموا ممالك ودولاً وصنعوا حضارات !!..

وإذا ما قيل هذه أقاويل في حاجة إلى توثيق ، وإلى تدقيق ، صدرت التهم ضد قائل هذا القول بأنه ناكِر للجميل ، وأنه يهضم هذا الوطن ، وهذا الشعب .. الخ .

وكان مصيبة قد حلت على هذا البلد بهذا المطلب الطبيعي الذي ينبغي أن يتصدر أي كتابة عن تاريخ اليمن أو غير اليمن .

ولا يبقى هذا المرض محصوراً على تاريخ اليمن القديم ، وإنما أيضاً يدخل فيه جانب من التاريخ الإسلامي ..

فيصور اليمانيون بأنهم ما أن سمعوا بدعوة الإسلام حتى استجابوا دفعة واحدة وفي وقت واحد ، ولم يرفع عليهم سيف كما حصل مع العدنانيين من قريش وغيرهم !!..

وحيثما تبحث عن مصداقية هذا الكلام فلا تجد له دليلاً ولا حجة ولا برهان إلا إضفاء الجدل والنقاوة والطهارة لليمانيين والاستجابة الفورية للإسلام .

ونسي أو تناسى هؤلاء الذين أرادوا تضخيم دور اليمانيين أن اليمن عند ظهور الإسلام لم يكن تحت حكم دولة واحدة ، وأن الفرس يحكمون جزءاً ، والروم لهم نفوذ في نجران ، والقبائل الكبيرة والصغيرة على حد سواء كان كل كيان منها يقيم له هيكلًا منفصلاً عن الآخر إن لم يكن محارباً لمن حوله .. فكيف تتجمع هذه الكيانات كلها على كلمة سواء والاستجابة الفورية للإسلام .. ثم ينبغي أن يسأل نفسه من يريد هذه الأبهة لليمانيين متى كان إسلام أهل اليمن ؟ ألم يكن محصوراً بين السنة الثامنة والعاشر للهجرة أي في السنوات الثلاث الأخيرة من عمر عهد النبوة . فأين كانوا طوال عشرين سنة منذ بداية الدعوة ؟

ومن مظاهر الحساسية الأسطورية الحديث عن اليمانيين بعد الإسلام بشكل لا يتوافق مع الواقع ، فانتشار أهل اليمن في الأمصار أثناء حركة الفتوحات الإسلامية ارتبط بالهوية الوطنية !! . فالوطنية تطغى على من يكتب في التاريخ فيتبع اليمانيين في كل صقع ومصر وكان جبال تلك الأصقاع موصولة بجبال اليمن وكل فرد ظل مرتبطاً باليمن طوال القرون !! وهذا تاريخياً لا يمكن أن يثبت .

حتى أولئك الذين استقروا في الأمصار لم تكن العصبية اليمانية تقوم على عصبية عرقية أو وطنية وإنما كانت عصبية قوة سياسية تسعى لأن تكون صاحبة السيادة في هذا المصر أو ذاك ،

ولهذا قد يدخل في اليمانية قوى قبلية أخرى كالتنزارية بحكم المصلحة والولاء .. ولم تحصل عداوات عنصرية .. ولم يحدثنا التاريخ عن تصفيات عرقية .

* * *

من الغريب أن (الطفح) الذي يظهر على جلد المريض قد يكون سببه (الحكمة) الزائدة التي يمارسها المريض نفسه .. وهذا ما يحصل في جسد التاريخ حيث نجد من يكتب عن تاريخ اليمن بأثر هذه الحساسية يظل يمارس الحك التاريخي حتى تظهر البقع الجربية بشكل مخيف .

فيضفي مثلاً على بعض الشخصيات السياسية قداسة خاصة أو بطولة من نوع خاص وتجاهل كل خلفياتها الأيدلوجية التي دفعته إلى سدة السياسة . فمثلاً هناك من يجعل كلاً من شخصية الأسود العنسي ، وعلي بن الفضل .. في مصاف القادة المسلمين المقدسين !! ولا أدري كيف رسمت ولونت تلك الشخصيات وقدمت للعامة بهذه الصورة رغم أن التاريخ المدون لم يدل بشهادته في هذه القداسة .. بل من الأجدر بالكتابة التي زورت هذه الشهادة أن تقدم للمحاكمة التاريخية لأنها تقولت على التاريخ ما لم يقله . وفي الجانب المقابل هناك من ينزل على هذه الشخصيات جام سخطة ويمطرها بلعناته .. بينما هناك منهج علمي لدراسة أي حدث وأي شخصية فيُعطي كل ذي حق حقه . مع الأخذ في الاعتبار أن كل إنسان يحمل فكراً ينبثق منه عملاً .. ولو دُرست الأفكار والمعتقدات لهذه الشخصيات لفهمت مواقفها ، واستطعنا تفسير الأحداث ، وميزنا بين ما نسب إليها وما قامت بها على الحقيقة .

وهناك من جعل شخصيات الأئمة الزيدية مقدسين ، وأي نقد لهم فهذا يعني أن المذهب قد تعرض للغمز واللمز بل والهدم والإقصاء رغم أن المذهب لا علاقة له بهذه القداسة بأي وجه من الوجوه .

وجر هذا الأمر إلى نظام الإمامة الزيدية عبر مراحلها المختلفة الذي بدأ في أواخر القرن الثالث الهجري الإمام الهادي يحيى بن الحسين (ت ٢٩٨هـ / ٩١٠م) محققاً نجاحات سريعة ليصبح بعد ذلك اليمن وكأنه خاص بالأئمة الزيدية . وإذا ما نظر أي قارئ لبعض الكتب التي تؤرخ لليمن من وجهة النظر الزيدية فإنه يجد أنها تعرض تاريخ الإمام - أي إمام - حتى ولو لم

يحكم ، ومن خلال مدة إمامته تعرض أوضاع الدول التي قامت في اليمن بوصفها أوضاعاً مناوئة للإمام^(١) .

وإذا ما نبه أي دارس لهذه المغالطات التاريخية أشرأت إليه الأعناق ، ونصبت حوله الأبواق ، وشوّهت صورته في الآفاق .

رغم أن الأئمة الزيدية هم بشر مثل غيرهم من البشر ، وقد تقلبوا في الحكم ، وغيروا في النظرية المذهبية السياسية عند الزيدية حتى صارت وراثية مثلها مثل بقية الأسر الحاكمة فلم يعد الإمام هو الذي يخرج شاهراً سيفه داعياً لنفسه متوفراً فيه شروط الإمامة . أما الدولة العثمانية أو الحكم العثماني في اليمن فالنظرة إليه أقم من النظرة إلى الحكم الإنجليزي والفرنسي .

ولو عاد أي دارس إلى بعض ما كُتبَ عن العثمانيين في اليمن ، وبالدات عن الدخول الأول لوجد الأئمة الزيدية هم الذين يتصدرون مواجهة العثمانيين . ومن ثم فالمصادر الزيدية هي التي استقيت منها المعلومات لتؤرخ للعثمانيين في اليمن .. وهذا قضاء أعرج فكيف يكون هو الخصم والحكم .. ؟

ولو رفع (كرت) أحرر للتحذير من هذه المخالفة التاريخية وجهت سهام الاتهام اللاذعة من كل أصحاب الرايات السود والحرر على حد سواء .. رغم أن لفظ (الإمامة) مرفوض ممقوت عند بعض هؤلاء إلا أنه في مواجهة العثمانيين مقبول ممنون .

ولم يتم التفريق بين الدخول العثماني الأول إلى اليمن والدخول الثاني ، فالأول له دوافعه وبواعثه وإجراءاته بناءً على الخطة التي اتبعتها الخلافة العثمانية ضد التوجه الأوربي إلى الشرق الإسلامي والانبعاث الشيعي في الشرق .. وأما الدخول الثاني رغم أنه كان لمواجهة التدخل الأوربي عامة والإنجليزي خاصة في اليمن بعد احتلالهم لعدن إلا أن هذا الدخول الثاني صار ملوناً بلون قومي تركي بحكم تحكم الفكر القومي (الطُوروني) الذي كان متغلغلاً في صفوف الجيش رغم ما بذله السلطان عبد الحميد الثاني (ت ١٩١٤ م) من إلغاء التوجه القومي وإضفاء الصبغة الإسلامية إلى أن أطيح به من قبل جمعية الاتحاد والترقي ذات الوجهة القومية التركية الطاغية التي سعت بغياء لاضطهاد القوميات الأخرى . فكان هذا سبباً في قيام القوميات الأخرى ضدهم .

(١) انظر : كتاب : الحدائق الوردية للمحلي (ت ١٣٥٢هـ / ١٢٥٤م) .

وهناك من ينظر للإمامة بأنها شر محض وكأنها يجب أن تقتلع بكل الوسائل وهذا لون آخر من ألوان الحساسية فهناك من الأئمة من كان رائده الإسلام ، ومنطلقه تحقيق شريعة الله ، وحريصاً على إشاعة العدل ..

فلماذا يوضع كل الأئمة في سلسلة واحدة .. هذا ظلم للتاريخ بينما ينبغي أن تدرس الأحداث دراسة متجردة دون انحياز إلى هذا أو ذاك .. مع وجود معايير وموازن توزن بها الشخصيات والأحداث معاً .

* * *

وهناك حساسية مرضية تؤدي إلى وجود بثور ودمايل وتقيحات وتفزز صديداً منتناً .. وعلاجها يحتاج إلى وقت طويل .. وتترك ندباً غائرة . وربما يتكرر ظهور هذه الدمايل كلما بقي للحساسية وجود .

ويشبه هذه الحساسية المرضية حساسية تاريخية في الأجيال المعاصرة وهي تنظر إلى تاريخ هذا البلد بحساسية العصبية أو ما كان يسمى في كتب التاريخ المثالب والمناقب .. أو الشعوبية ، أو بمعنى أدق العصبية العرقية ، أو القبلية .. هذه الحساسية أوجدت دمايل تاريخية في جسم الأمة لا تزال تنزف قيحاً وصديداً .. فيصب في أحواض منتنة من العصبية .

فالافتخار بالأوثان والأصنام .. والمعابد .. والمذابح .. والقرايين .. والطقوس .. لا تقدم للقارئ على أنها ضمن دراسة موضوعية تستنتج منها نتائج وعبر بل يبالغ في وصفها وتمجيدها والافتخار بها فقط لأنها يمنية .

ولو قيل بأن هذه الآثار في حاجة إلى تأكيد من جهات محايدة ، أو أنها قد تكون ذات أصول وثنية يونانية ، أو أن الناس كانوا وثنيين وكانوا مشركين .. أو أو نجد من يتصدى للقول بأن هذه هي الآلهة الوطنية التي توصف بأوصاف التبجيل والتقديس والاحترام .. لا شيء إلا لأنها يمنية . وهذا للأسف تطبيق عملي لما كان يهدف إليه الاستعمار الأوربي حيث يقول المستشرق الإنجليزي هـ . أير . جب في كتابه (إلى أين يتجه الإسلام)^(١) : " وقد كان من أهم مظاهر سياسة التغريب في العالم الإسلامي تنمية الاهتمام بعث الحضارات القديمة التي ازدهرت في البلاد المختلفة التي يشغلها المسلمون الآن . فمثل هذا الاهتمام موجود في تركيا وفي مصر وفي

(١) طبعة ١٩٣٢ م . لندن . وانظر : د. محمد محمد حسين . الإسلام والحضارة الغربية ٢٣٧ .

أندونيسيا وفي العراق وفي إيران . وقد تكون أهميته محصورة الآن في تقوية شعور العداء لأوروبا ، ولكن من الممكن أن يلعب في المستقبل دوراً مهماً في تقوية القوميات الخلية وتدعيم مقوماتها " .

وفي التاريخ الإسلامي زورت أحداث ليقرأها من يقرأها وكأنها تتحدث عن الوطنية اليمنية ضد الفرس الذين حكموا الوطن .. وتجعل هؤلاء الفرس أعداء .. تتجمع ضدهم قبائل مذحج وخولان وهمدان وكنده وأزد السراة تجمعوا لمحاربة الفرس الجوس وتحت قيادة الأسود العنسي وقيس بن مكشوح المرادي لأن القبائل تلك كانت قد أسلمت بينما الفرس لم يسلموا إلا على يد الأسود العنسي !! هكذا تطرح الأحداث . بينما هؤلاء الفرس (الأبناء) أسلموا بحسب الوقائع التاريخية الصحيحة نهاية العام السابع الهجري أو مطلع العام الثامن الهجري ، ويُعدُّون أول قوة في اليمن تدخل الإسلام ولم تدخل قبيلة مذحج ومنهم عنس وزبيد ومراد في الإسلام إلا في العام العاشر ، ولا أدري كيف تضم خولان إلى همدان في مواجهة الأبناء في عرف أولئك الكتاب مع أن الحقائق التاريخية تحدثنا عن حروب قضاة التي كانت بين خولان وهمدان ولم يوقفها إلا الإسلام ولم يسلموا إلا في العامين التاسع والعاشر^(١) .

ونتيجة تفاعل حدة هذه الحساسية - العصبية - ظهر ما يمكن أن نسميه دمايل الأنساب .. فنشبت معركة بين النسابين منهم من يعلو عدنان .. ويطعن في قحطان .. ومنهم على العكس يعلو قحطان ويطعن في عدنان . وبما أن القرنين الثاني والثالث الهجريين كانا يعجان بالشعبوية التي بدأت في حويفلات الفرس من ناحية ، والعرب من ناحية أخرى ، ثم انتقلت العدوى إلى القبائل العربية عموماً ، وبرز منهما فرعان مهمان : العدنانية والقحطانية . فقد ظهرت معركة طاحنة في عالم كتابات الأنساب من منطلق العصبية ليس لأن الأنساب مدسوسة ولكن صارت هناك مبالغات ومفاخرات مما أدى إلى مغالطات وكان للهمداني (توفي بين عامي ٣٥٠هـ / ٩٦١م و ٣٦٠هـ / ٩٧٠م) مشاركة في هذه المعركة حيث أنشأ قصيدة الدامغة وشرحها .. مع أن الهمداني الشاب في (قصيدته الدامغة) غير الهمداني العالم الناضج في كتابه القيم (صفة جزيرة العرب) فكأنه ينقض كلامه الذي قاله في الدامغة .. وأتخى على الباحثين دراسة الدامغة دراسة أخرى مجردة من الهوى .. والهوى المضاد .

(١) انظر : الهداني . الإكليل ج ١ .

ومن غرائب العدوى أن صارت قصيدة الدامغة تعارض بقصائد وتنقض بأخرى في سلسلة تاريخية متسلسلة إلى العصر الحديث فثارت هناك عصبية ممقوتة بين العلويين أو السادة من ناحية والمتسمين بالقحطانية من ناحية أخرى .. ونشأت إحن وضغائن ، فهذا يطعن في هذا .. وتغذيها توجهات مذهبية حتى صرنا نسمع من يقول شعراً :

آل عدنان قد نزلتم ضيوفاً	بجسوم عجفا تشكو الزمانة
لفظتكم أوطانكم كالكناسات	إليه حقارة ومهاناة
آل قحطان آن أن يوثق الجحرم	هَذَا وَيُودَع الزنزانة
خدعتكم لصوص عدنان باسم الدين	غشاً وخدعة وكهاناة

فهل هذا يقبل في ظل القاعدة الإنسانية الضخمة " كلكم لآدم وآدم من تراب " " إن أكرمكم عند الله أتقاكم " بل لقد صار من الشائع أن كتابات الهمداني أخفيت عمداً لأنها تعلي من شأن القحطانية .. أليس هذا مرضاً خفيفاً .. أليست هذه الحساسية معدية ؟! .. ألا تجد في نفسك خوفاً من بعض الكتابات التاريخية فتبتعد عنها حتى لا تصل إليك العدوى ؟!

* * *

(ومن الحب ما قتل) . هذا المثل يصدق تماماً على المريض بالحساسية الجسدية والحساسية التاريخية سواء بسواء فالمريض بالحساسية الجسدية سيتعذب الحك وقد لا يدري - أو هو يدري - أن هذا الحك هو الذي يؤدي إلى مضاعفة المرض .. وهذا ما يفعله من يكتب في التاريخ دون روية أو دراية .

فقد أنتجت الحساسية التاريخية رفض بعض الحقائق التاريخية نفسها . وهذا يتضح من خلال الكتابات التي زعمت بأن أهل اليمن لم تقع فيهم ردة !! وهذا إشفاق على أبناء جلدته ممن أن يُدْمَغُوا بالردة . وظهرت مبررات لليمنيين وما حصل منهم وبشكل فج ، فهم لم يخرجوا إلا معترضين على حكم الفرس وليست ردة !! وأنهم ثاروا لتولية الفرس عليهم وليست ردة !! فهذا الإغفال أو التجاهل للحقائق التاريخية يمثل حالة مرضية . وهذا بالضبط ما يفعله المريض بالحساسية الجسدية فهو يحك وبشدة ويقول : إنه يحس بالراحة وهو يحك بينما ما أن ينتهي من الحك حتى تكون أظفاره قد خضبت بالدماء التي تتزف من جلده ، ولو عاد أولئك الذين يكتبون في التاريخ إلى الحقائق لوجدوا هذا الإنكار بعدم حصول الردة لا وجود له أصلاً إلا حباً في أهلهم وذويهم ولا غضاضة في أن تحصل فيهم ردة ثم يعودون ويتوبون ويصيرون من قادة الأمة .

والفعل ذاته حصل مع أولئك الذين نفوا عن أهل اليمن من أن يكون منهم قرامطة - إسماعيلية - يؤمنون بالأفكار والمبادئ الغربية عن الفكر الإسلامي فيقال : إن هذا لا يمكن أن يحصل من يمني ، وكان اليمنيين معصومين عن الوقوع في براثن هذه الأفكار والمعتقدات . بل ووصل الأمر إلى إنكار الأفكار ذاتها .

وكان الأجدر بمن يتصدى لمثل هذه الكتابة أن يعود إلى مصادر فكر أولئك القوم وأصولهم الفكرية من كتبهم أنفسهم ليطالع على حقيقة معتقداتهم ، ثم يترك وقائع التاريخ - بعد ثبوتها - تتحدث عن نفسها وتفرز النتائج التي ترشح عنها دون تدخل في لي عنقها وتطويعها لتوجهات الحساسية المرضية ..

ومن الحساسية التاريخية المرتبطة بالعصبية الفكرية ما نلاحظه من دراساتنا للمصادر التاريخية التي تترجم للصوفية المليئة بالقصص المتشحة بصفة الكرامات .. ولا تقلب صفحة إلا وتجد هذه القصص تملأ عليك كل الفضاء الذي تشاهده في تلك المصادر .

وإذا ما قيل إن هذه القصص هي من نسج الخيال .. خيال الأتباع .. أكثر من خيال أصحابها .. إذا ما قيل ذلك صارت الأعين ترمق القائل بنظرات حادة .. وتلسه الكلمات الحادة وكأنه قد جاء شيئاً إداً .

ومما يثير العجب أن تجد المستنكر ذلك ليس من يعيش طقوس التصوف وحده ، بل ربما من كان يحمل فكراً لا دينياً .. وقد تتساءل عن الرابط بينهما فلا تجد إلا عدم الرغبة في وجود جسم صحيح للأمة .

وصفة مقترحة لعلاج الحساسية التاريخية :

ينصح الأطباء بوصفة علاجية لتجنب حدوث مضاعفات للحساسية الجسدية أو لمعالجة حالات الحساسية نفسها .. ومن أهم جوانب هذه الوصفة :

- ١- دقة التشخيص .
- ٢- الابتعاد عن كل المهيجات والمثيرات للحساسية . ومنها الحد من الحكمة التي تهيج المرض
- ٣- النظافة العامة لكل ما يستخدمه المريض .
- ٤- تجنب العدوى والوقاية .
- ٥- العلاج الدوائي .. ومنها المطهرات والمضادات الحيوية .. الخ .

ترى لو أسقطنا هذه الوصفة العلاجية للأمراض الجسدية على المرض التاريخي الذي أسميناه الحساسية التاريخية .. ترى لو استفدنا من هذه الوصفة وحاولنا اقتراح وصفة علاجية للحساسية التاريخية ، فهل تكون مقبولة ومنطقية وواقعية ؟!

لنجرب لعلنا ننجح .. وهي كما أراها وصفة مقترحة فمن شاء أن يضيف ، أو يحذف ، أو يعدل ، فهذا شأن الأخصائيين الذين يحرصون على معالجة هذه الحالة المرضية التي أصابت التاريخ اليمني عموماً ..

فلكي يشفى التاريخ اليمني من الحساسية لا بد من :

١- دقة التشخيص ..

يقال في الطب أن التشخيص نصف العلاج ، وفي التاريخ كذلك إن لم يكن أكثر من ذلك . إن التشخيص الدقيق معلم دوائي مهم في مجال التاريخ إذا لم ينتبه إليه من يرغب في الكتابة التاريخية فإنه قد تختلط عليه الأوراق ولن يحسن العلاج قط ..

فالذي يحكم على الحالة التاريخية بحكم مسبق يصل إلى نتائج سيئة قد تؤدي بالتاريخ إلى هاوية كما هو حال من يحكم على المريض حكماً مسبقاً فيكون سبباً في إنهاء حياة المريض .

والذي يطلق أسماء ومسميات ومصطلحات على واقع تاريخي معين لم تستعمل ولم تعرف عند الجيل الذي عاش الحدث ، يكون ذلك الذي أطلق تلك الأسماء والمصطلحات قد سمى الأشياء بغير مسمياتها ، ومن ثم عالجها بغير العلاج المخصص لها بل ربما العلاج صار ضاراً لأنه موصوف لحالة أخرى .

والذي يسقط ما حصل في حقبة تاريخية لاحقة على ما حصل في حقبة تاريخية سابقة يكون هذا ناتج عن عشى ألوان أصابه لأنه لم يميز بين الحقب التاريخية وخصائص كل حقبة على حدة .. وإذا ما وصف العلاج يكون علاجاً في غير محله ، وإن لم يضر فهو لم ينفع .

والذي يتر السلوك والعمل والحدث عن الفكر والمعتقد والتصور يكون كمن يفصل الورقة عن ساقها ، فهل للورقة من حياة بعد هذا الفصل ؟ وكذلك فصل السلوك أو الحدث عن المعتقد والفكر . إن هذا يعد عملاً عبثياً ، لأنه لا ينتج تحليلاً صحيحاً ، ولا

رؤية عميقة ، لأنه من المعروف (أن العمل فرع عن تصويره) فالفكر يسبق العمل ، وأي كتابة بهذه الطريقة المبثورة لن توصل إلى تشخيص صحيح .

٢- الابتعاد عن كل المهيجات والمثيرات .. فاستدعاء النفسيات التي صاحبت الأحداث ، والعيش معها وكأنها حصلت اليوم ، والتعصب لهذا الفريق أو ذاك . هذه مهيجات منهجية لا ينبغي للذي لب أن يسعى إليها . فالحدث قد حصل ولا يعقل أن يعيش من كتب كل مؤثراته ويعمل على إذكاء مسبباته .. فهذا بلا شك يؤدي إلى استحضار الماضي وبكل جراحاته .. لا للاستفادة من دروس ما حصل بل لإحياء ما حصل بكل آثاره السيئة وهذا خطأ منهجي ، وخطأ سلوكي معاً ..

فالمنهج العلمي يقتضي التوثق من الوقائع ودراسة ما توثق منها واستكناه النتائج ، والقبول بما دون تدخل في توجيه النتائج ، ثم الابتعاد عن نقل العدوى حتى لا يستفحل بهذه المهيجات .

٣- النظافة التاريخية وأعني بها :

أ- الابتعاد عن الأهواء السياسية أو المذهبية أو الفكرية المضادة في توجيه الأحداث

ب- التلقي من المصادر المختلفة دون الاختصار على مصدر محدد له ميول خاص .

ج- التأكد من صحة الأحداث والروايات .

د- التجرد في صياغة الروايات وعدم الميل في استخدام البعض وترك البعض لتحقيق غايات تعارض مع الحقائق التاريخية .

هـ- الأمانة العلمية في نقل ما ذكرته المصادر .

و- عدم إسقاط الأمراض التي وقعت في مجتمع ما على مجتمع آخر لأن هذا مسخ لهوية المجتمع ، وترك مجتمع بلا مقومات .

٤- تجنب العدوى .. هذا يقتضي ألا ننقل أمراض الماضي إلى الحاضر . أو الحاضر إلى الماضي . فإذا كان قد وقع قوم في مرض ما فلا نخرج لناخذ هذا المرض تحت أي مبرر أو أي حجة .

فمن البدهة أن المريض بمرض معدي نتجنب مخالطته فكيف بمن يسعى - مع سبق الإصرار والترصد - أن يحقن الكتابة التاريخية بالمرض القديم أو بالمرض الحديث فتفرز حانة مشاهمة تماماً للماضي أو للحاضر . وهذا خطأ بل جريمة يقدم فاعلها للمحاكمة ..

فالتاريخ حدث مضي .. والجيل التالي يستفيد من الحدث لا ليقع في الحدث إذا كان شيئاً ..

٥- أما العلاج الدوائي .. واستخدام العقاقير المختلفة فهذا في التاريخ لا يقل أهمية عما سبق ..

وأهم ما في هذا الجانب هو استخدام المنهج العلمي الصحيح في دراسة التاريخ ، والابتعاد عن التذوقات الشخصية أو الوطنية أو الفكرية .. ولنترك التاريخ يتحدث عن نفسه ، وندع النتائج تشرح بتلقائية .. ثم نستخلص العظات والعبر والفوائد والدروس .. فالحسن يحتذى ، والقيح يجنب .

أخيراً .. تُرى هل يمكن أن تكون هذه الوصفة مقبولة لمعالجة هذه الحالة المرضية التي أصابت جسم التاريخ أم أن هناك أعراضاً أخرى ستطفو على السطح وسترفض هذه الوصفة لأنها لا تحقق لذة (الحك) الدامي.

على كل لست متشائماً .. بل أظن أن التفاؤل يظللني لأنني ألمح جيلاً جديداً من المؤرخين الناشئين أجدر فيهم أملاً صاعداً .. ونوراً يطلع في الأفق .. لعل ذلك الجيل القادم يعمل على معالجة ما يمكن علاجه ..

كان الله في عونهم ..